الهوية والمواطنة

البدائل الملتبسة والحداثة المتعثّرة

شيرزاد أحمد أمين النجار

ameensherzad@yahoo.com

تمهيد:

يمتد المسار المعرفي والفكري والإنتاجي للمفكر د.عبدالحسين شعبان إلى سنوات عديدة عابرة حيث غزارة الإنتاج والعمق المعرفي ووصل هذا المسار إلى 2020 حيث صدرت الطبعة الثانية لكتابه الموسوم: الهوّية والمواطنة: البدائل الملتبسة والحداثة المتعثّرة عن مركز دراسات الوحدة العربية –بيروت.

محتويات الكتاب توزعت على الفصول الآتية:

الفصل الأول (في الهوّية) إستهله المؤلف بوضع الأُطر المرجعية للقسم الأول من دراسته والمتمثلة بـ (الهوّية الثقافية، الهوّية والعولمة، الهوّية والأيديولوجيا).

الفصل الثاني (المواطنة) بحث فيه د.شعبان الأطر المرجعية للقسم الثاني من دراسته وهي

(المواطنة تأريخياً، المواطنة في الإسلام، المواطنة والدولة، المواطنة والتربية).

الفصل الثالث (الهوّية والمواطنة والمنفى) حاول فيه المؤلف إيجاد رابطة عضوية ما بين عناوين الفصلين الأول والثاني (أي ما بين الهوّية والمواطنة) والمنفي وتمثلت المحاولة في المسائل الآتية: المنفى: إختيار أم إضطرار؟، الأدب ورحلة المنفى، الهوّية والذاكرة.

الفصل الرابع (دراسات وحوارات في الهوّية والمواطنة) ودخل فيه د.شعبان في الحقل التجريبي حيث الحوارات والنقاشات تركّزت على أولاً: العروبة:الهوّية، الهوّية، المواطنة، الدولة؛ ثانياً: الهوّية والحضارة وطرح فيه تساؤلاً جوهرياً: لماذا العراق؟؛ ثالثاً: الثقافة والمواطنة والهوّية في الوطن العربي.؛ رابعاً: الهوّية والمواطنة والعدالة؛ خامساً: الهوّية والمعرفة.

الفصل الخامس خصص لـ(مقالات ومشاركات) وأوضح د.شعبان من خلالها مسائل متعددة منها أولاً: معنى الهوّية، إزدواجية الهوّية، تدمير الهوّية الثقافية العربية، العلاقة بين مفهوم الأقليات و حق تقرير المصير، ثم تناول موضوعاً مهماً وهو: إشكالية الهوّية والمواطنة في العراق، ثم تطرق إلى: نعيم الهوّية وجحيمها في العراق؟، مدخلات الهوّية ومخرجات العولمة، ما بعد التعدّدية الثقافية وتضاريس التنوع الثقافي. ثانياً: معنى المواطنة حيث بحث فيه عن ثقافة المواطنة، الطائفة والطائفية وتشكيلات ما قبل الدولة، المواطنة الألكترونية، المواطنة الإفتراضية، وتساءل: هل تستقيم المواطنة مع الفقر؟

ويختتم الكتاب بخاتمة بعنوان: الهوّية والمواطنة بضدهما!

إذن، هذه هي المواضيعَ التي وضعها مفكرنا الدكتور عبدالحسين شعبان للنقاش ولمزيد من الحوارات. هنا سنناقش ونتحاورَ مع أهم تلك المواضيع، ولكن إبتداءً نؤكد أن ميَزة مهمة للكتاب هي أن مواضيعه تراوحت ما بين الإطار النظري للهوّية والمواطنة والإطار التجريبي التطبيقي تمثلت في الحوارات والنقاشات، وهذه من إيجابيات طروحات الكتاب.

في الإتصال العضوي للهوية بالمواطنة

إن مناقشة مسألة الهوّية تستلزم أساساً الإلتزام بالإطار العلمي للبحث حيث أن تلك المسألة مرتبطة ومحاطة وبشدة بـ " أفكار ثقافوية مُسبقة " كما يقول رينيه عُتيق في كتابه حول " الهوّية والديمقراطية " والتي من الممكن أن تؤدي إلى صراعات الهوّية.

بدأ الإهتمام بموضوع الهُويّة والمواطنة في علم السياسة وعلم الإجتماع والفلسفة بشكل مُرّكَز بعد إنهيار الأنظمة الشمولية، حيث إنفجرت الهُويات الفرعية المهدِّدة للهُويّة العامة المشتركة ولمفهوم المواطنة، وبالتالي شكّلت خطراً جدياً لكيان الدولة. ومنذ وقت مبكر تصدّى الأكاديمي والمفكر الدكتور عبد الحسين شعبان لدراسة هذه الظاهرة الجديدة بما لها من إشكالات وامتدادات وتعقيدات على جميع مناحي التطور السياسي والاجتماعي والاقتصادي والجيوستراتيجي.

وفي مقدمته للطبعة الجديدة يوضح الدكتور شعبان بأنه إنشغل بموضوع الهوّية والمواطنة منذ نحو 3عقود من الزمان، لاسيّما حين تناول موضوع "الجنسية واللاّجنسية في القانونين العراقي والدولي في كتابه "من هو العراقي" ((2002و" جدل الهويّات في العراق – المواطنة والدولة" الذي صدر في العام ?2009إضافة إلى الطبعة الأولى من الكتاب الذي نحن بصدده (- 2017مركز دراسات الوحدة العربية) وذلك في إطار جامع ومترابط بين الهوّية والمواطنة، فإضافة إلى الجوانب الفكرية والنظرية، فقد عالج الموضوعين بطائفة متنوّعة من المقالات، تعتبر إضافة مهمة وعملية لا غنى عنها لتحليل الظاهرة من جميع جوانبها.

وقد كان إنفجار موضوع الهُويات قد أدى إلى تغيير في العديد من المسلمات والفرضيات المتعلقة بالنظرة السابقة ، الأمر الذي تطلّب ، إعادة النظر فيها فردياً وجماعياً، وعلى الصعيدين الخاص والعام.

فقد رافقت هذه الظاهرة مسائل خطيرة تتعلق بالتعصّب والإنحياز الطائفي والتطرّف الإيديولوجي، بحيث وصل الأمر إلى حد العنف وتبرير إستخدام القوة في فرض هُوية معينة على هُويات أخرى، وصولاً إلى الإرهاب، سواء على المستوى المحلي أو على المستوى الدَولي، والذي سيؤثر على الإنتماء الوطني وعلى علاقة الفرد بالدولة. وهنا مكمن الخطورة التي تستوجب الحذر والحيطة، وتجربة القاعدة وداعش، ناهيكم عن توجهات وممارسات عنصرية متنوّعة وفي العديد من البلدان خير دليل على ذلك.

ولذلك كان موضوع الهُوية الوطنية وما يزال يمثل احد المسائل التي أثارت وما تزال تثير الكثير من الجدل والمناقشات الحادة والعميقة، لكونه يؤدي إلى جملة من الإشكاليات الفكرية والسياسية والإجتماعية والإقتصادية في معظم الدول والمجتمعات الإنتقالية المضطربة، وخصوصاً تلك التي تعيش أوضاعاً غير مستقرة بسبب التنوّع القومي والمذهبي والديني والعشائري، وعدم التوصل إلى تفاهمات لإدارته بصورة سليمة.

ينطلق الدكتور شعبان معالجة موضوع الهُوية والمواطنة من الإنسان ولمصلحته، حيث أن الإنسان هوالمقياس لكل الأشياء: الكائنة والتي تكون، وغير الكائنة والتي لا تكون "(بروتاغورس، 485ق.م.-410 ق.م.)، ولذلك يدعو إلى البحث عن المشتركات الإنسانية التي تربط بين ثقافة المجال العام المشترك (بالمفهوم الهابرماسي) وبين ثقافة المجال الخاص.

والسؤال كيف يحصل هذا، وكيف يمكن للفرد أن يحافظ على هُويته الخاصة ويتفاعل مع الهُوية العامة المشتركة، وكيف يمكن للمواطن أن يشعر بمواطنيته على الرغم من أنه يحتفظ بالإنتماء إلى مجال فرعي ضيق؟ ذلك يعتمد على إدارة التنوّع والحلول التي يمكن التوصل بقناعات جميع الأطراف.

إن ذلك هو الهدف الجوهري الذي يطرحه شعبان في مقاربة مع تشارلز تايلر الذي يرى أن الناس يعرفون هويتهم جزئياً بالتزام أخلاقي أو روحي، وتلك "أزمة هويّة" لاسيّما العجز عن معرفة الهويّة الذاتية، حيث على المرء أن يكون مخلصاً لها، ولكن يمكن أن يفشل في دعمها أو التعبير عنها، وعند الوجوب يمكن أن يتنازل عنها، وهنا تلعب العوامل السياسية وطبيعة النظام السياسي دورها في بلورة وتعزيز الهويّة الوطنية أو إضعافها أو تغييبها لصالح هويّات فرعية، سواء كانت قومية أو دينية أو مذهبية أو مناطقية.

الهُوية

" تقع الهُوية في قلب الصراع الهادف إلى صياغة تعريف نهائي للإنسان" حسب عبدالغني عماد ، فقد كان سؤال الهُوية وبالتالي الثقافة والمعرفة فلسفياً بالأساس، محط انشغال لعدد من المفكرين والباحثين منذ بدء التفكير بالذات والجوهر والماهية والكينونة... ونشأت حولها مدارس واتجاهات ومناهج للنظر والتحليل، ومع ذلك بقينا على هامش تلك المناظرات، نكتفي بالقليل الذي يصل إلينا... لم ننتبه إلى أن المكتبة العربية تكاد تكون خاوية إلّا من ... بعض المؤلفات... التي اكتفت في الغالب، بالعرض دون التحليل والنقد... ودون أي ربط أو تشبيك معرفي أو تكييف فكري لها مع البيئة الثقافية العربية التي كانت ولا تزال بأمس الحاجة للبحث النظري والأكاديمي الهادئ والعقلاني في مسائل وإشكاليات الهُوية وأبعادها المختلفة.

ويحدد عالم السياسة الأمريكي الشهير(لوشيان باي) الأزمات السياسية المواجهة للنظام السياسي بكونها تتكوّن من عدة أزمات أهمها: أزمة الهُوية. وعليه، فإن الهُوية كمفهوم وكواقع تُناقش وتُحلل ليس فقط على الصعيد الفلسفي فحسب، بل كذلك على الصعيد الواقعي كظاهرة تبرز خلال التطورات السياسية في بلد ما وتُطرح (وعلى الأخص في البلدان الأقل نمواً) بكونها تُشكل أزمة تحيط بالنظام السياسي (أي الدولة عموماً) ويجب معالجتها.

وقد أخذ المفكر الدكتور عبدالحسين شعبان هذه المهمة الصعبة والمعقدة على عاتقه عندما طرح رؤية جديدة ومهمة تتمثل في قوله أن " ... وحتى المفاهيم الحديثة التي جرى الاعتقاد أنها العلاج الشافي لمسألة انبعاث هوّية عصرية جديدة، أساسها الديمقراطية، فإن هذه القيم لوحدها غير جديرة ببناء هوّية موحّدة"، إذن لبناء "هُوية موحدة" فإننا بحاجة إلى " استنهاض القيم التاريخية والثقافية المشتركة والذاكرة الجماعية العابرة للآيديولوجيات والطوائف والقوميات والإثنيات واللغات، سواء على المستوى الجمعي أو على المستوى الفردي، فللفرد مثلما للمجموعة أكثر من هوّية..."، والتي يحددها بكونها " هُوية مُركبَة "، تلك التي ترتبط بالوطن ولكنها في نفس الوقت مرتبطة بإعتبارات فردية محلية تتفاعل فيها عوامل عديدة قومية ودينية ولغوية وسلالية واجتماعية وثقافية وتاريخية وغيرها.

ويجب أن تكون الهويّة " مفتوحة تتطور مع تطور الزمن" و تحتاج إلى عملية بناء مشتركات من بين الهُويّات الفرعية التي قد تسيطر عليها " ردود فعل دفاعية ضد " التسيّد أو الهيمنة أو رفض الاستتباع وقد تندفع مرغمة على الانعزال، سواء على المستوى الفردي أم على المستوى الجماعي "، ولكنها في نفس الوقت قد تكون مدفوعة نحو التفاعل مع الهُويات المحلية الآخرى للبحث عن " عن تكافؤ الفرص لمواطنة متساوية ومتكافئة".

ولكن ليس بمقدور الهويّات الفرعية في مثل هذه المجتمعات بناء هُوية وطنية، لإن مجال عملها واهتمامها يدور وتتفاعل فقط في الميدان الإجتماعي الضيق وليس في الميدان الواسع: الميدان السياسي أي الدولة في الأساس، والتي جوهرها هو الوطنية الشاملة متجاوزة الجزيئات الفرعية. وحسب تعبيره: الهويّة أرخبيل مفتوح وليس بركة مغلقة، أي أنها قابلة للإضافة والحذف والتطوير والتغيير، وليست جامدة أو سرمدية.

إن الثقافة الفرعية أو الولاءات الجزئية لا تستطيع بناء المواطنة لكونها ضيقة ومحصورة ضمن ميدان فئتها الإجتماعية التي تمثّلها و تقيد خيارات الفرد وتؤسس احزاباً تعكس تلك الثقافة أو الولاء الضيق.

وهنا يحاول الدكتور شعبان الجمع ما بين الهُوية والمواطنة حيث يكتب:

" وقد حاولت معالجة موضوع "الهويّة والمواطنة" من زوايا مختلفة، سواء هُويّة الجماعة الثقافية أم هُويّة الفرد الثقافية آخذاً بنظر الاعتبار التحوّلات والتغييرات التي شهدتها هُويّة الجماعة أو الفرد كجزء من صيرورة تاريخية دينامية متعدّدة ومتنوّعة ومفتوحة وقابلة للإضافة والحذف بما يتناسب مع درجة التطور في كل مجتمع وكل مجموعة بشرية وكل فرد، بلحاظ القواعد القانونية العامة في الدولة العصرية، تلك التي تتيح الإمكانات لمواطنة سليمة ومتكافئة".

المواطنة

حين يبحث كاتبنا شعبان في مفهوم المواطنة، فلأنه شاع إستعماله في علم السياسة وعلم القانون وغيرها للدلالة على ضرورة ضمان حقوق الأفراد والجماعات وتحديد واجباتهم، ولكن لم يُعطى لها توضيحاً أو تفسيراً واضحاً. فإنه يعالج ذلك بتقديم ضروري في محاولة لسد النقص بتحديد مفهوم المواطنة بكونه يتعلق بـ " مسألة سلوكية تعني كل فرد من أفراد المجتمع وهي تتألف من اتحاد مواطنين، وكل مواطن له حقوق وعليه واجبات، وهذا الفهم يختلف عن "الرعايا" أو "التابعين" ، أي أن الأخيرين ملحقين في حين أن الأول يعتبر مصدر السلطة إذا ما جمعنا المواطنين إلى بعضهم وهو ما يتم التعبير عنه بالصياغات الدستورية " الشعب مصدر السلطات".

إن هذا يعني أن المواطنة تعتمد على وجود قناعة فكرية وقبول نفسي وإلتزام سياسي بها وبالتالي تصبح المواطنة بمثابة قيمة إجتماعية ، وقد ذهب د.عامر حسن فياض إلى ذلك حين قال: لا يمكن الحديث عن المواطنة بدون شروطها الموضوعية وهي: الدولة، المجتمع المدني، المؤسسات، الفردية ، وهذا يصبح وهماً، بما يتطابق مع ما طرحه د.شعبان عندما أكد: " والمواطن أي مواطن مَعنيُ بثلاث قضايا: علاقته بالدولة كيف تؤطر، ثم مشاركته في اتخاذ القرار، أي وفق أي صيغة دستورية، وأخيراً مسؤوليته كعضو فاعل في المجتمع ودوره في المشاركة الحيوية، باعتبار أن كل ما يدور في الدولة والمجتمع أمور تعنيه. وتتكون هويّة المواطنين من السمات المشتركة..."

عند ربطه ما بين الهُوية والمواطنة يحاول شعبان أن يؤسس أفكاره في إطار دولة المواطنة، ولذلك يقول:

" والمواطنة التي تقوم على مرتكزات أساسية قوامها: الحرية والمساواة والعدالة، ولاسيّما الاجتماعية والشراكة والمشاركة في الوطن، لا يمكن أن تعتمد على التلقين أو تمرّ من قنوات أيديولوجية أو تخضع لتقسيمات دينية أو طائفية، بل تحتاج إلى ممارسة حقوقية وحوار مستمرقطاعي ومجتمعي وقواعد قانونية تحمي المواطن الفرد مثلما تحمي حقوق المجموعات الثقافية وهويّاتها الفرعية ذات الخصوصية التي ينبغي احترامها"

هذه الأُسس: الحرية، المساواة والعدالة لاتتوفر إلا في دولة تحترم الحقوق والحريات وهي دولة المواطنة أي دولة القانون أو دولة الحق،أو حسب التعبير الألماني: Rechtsstaat

إن هذه الدولة هي تلك الدولة التي فيها تتطابق وتتداخل فكرتي الحق والواجب، وهذه الفكرة طرحها الفيلسوف الألماني هيجل في كتابه (فلسفة الحق) وكتب:

" كيف ما كانت الطريقة التي يحقق بها الفرد واجبه فإنه لابد في الوقت نفسه أن يجد فيها منفعته وأن يبلغ بواسطتها إشباعه ومصلحته الشخصية، فلا بد أن يتشأ حق –من خلال وضع الفرد في الدولة –تتحول بواسطته الشؤون العامة لتصبح شؤونه الخاصة. وبمقدار ما يحقق (الفرد) واجباته تحقيقاً كاملاً بإنجازه للمهام والخدمات التي تتطلبها الدولة، فإن وجوده يتدعم ويبقى، أما إذا ما أخذ الواجب على نحو مجرد فإن المصلحة العامة سوف تعتمد على إتمام المهام والخدمات التي تنتزعها بوصفها واجبات فحسب".

في الختام، فإن هذا الكتاب يعتبر مدخلاً أساسياً لفهم إشكاليات الهُوية والمواطنة ويثير في الوقت نفسه مجموعة من التساؤلات حول تلك الإشكاليات وكيفية وضع حلول واقعية تؤدي إلى خلق شروط موضوعية لتأسيس هُوية وطنية مشتركة شاملة التي هي الهدف المركزي للكتاب.

وتعتبر مقدمة الطبعة الثانية بذاتها إضافة نظرية مهمة للمفاهيم التي عمقها الباحث في الطبعة الأولى التي صدرت في العام 2017والتي نفذت، وقد قسم الكتاب إلى ثلاثة أقسام وعشرة فصول، تناول في القسم الأول : الهويّة والمواطنة والمنفى وخصص القسم الثاني لدراسات وحوارات أجريت معه بشأن الهويّة والمواطنة، أما القسم الثالث فقد بحث فيه بمقالات وآراء تخص الهويّة والمواطنة، من ازدواجية الهويّة ومحاولات تدمير الهويّة ومفهوم "الأقليات" وحق تقرير المصير ونعيم " الهويّة" أو جحيمها ومدخلاتها ومخرجاتها وفكرة الانتماء وتضاريس التنوّع الثقافي وما بعد التعددية الثقافية، إضافة إلى الطائفة والطائفية وعلاقتهما بالمواطنة والهويّة، إضافة إلى المواطنة الاليكترونية والافتراضية والفقر والمواطنة واختتم البحث بخاتمة مهمة تضمنت استنتاجات أساسية وكانت بعنوان " الهويّة والمواطنة بضدهما". وهي جميعها موضوعات في غاية الأهمية.

جدير القول إن هذا الكتاب أصبح منذ صدوره مصدراً مهماً وأساسياً لكل من يريد البحث عن الهُوية والمواطنة وإشكاليتهما، مما يستدعي الرجوع إليه كمرشد أساسي في موضوع شائك ومعقد، خصوصاً وإن الباحث يتناوله منْ زواياه المختلفة، وامتاز أسلوبه بالسلاسة وجمال اللغة .إنه كتاب يحتاجه الباحث المتخصص والناشط المدني والقارئ بشكل عام، لأنه إضافة مهمة إلى المكتبة والثقافة العربية.

□ مركز دراسات الوحدة العربية، ط2 بيروت، 2020 (208صفحات)

مركز دراسات الوحدة العربية
عبد الحسين شعبان
الهوية والمواطنة
البدائل الملتبسة والحداثة المتعثرة
الطبعة الثانية

غلاف الكتاب

عامٌ على وفاة محمد مرسي

ضحيةُ إبتسامةٍ ماكرة

محمد الحداد

القاهرة

في واحدة من أندر وأهم المنعطفات التاريخية الفارقة وجدَ مرسي نفسهُ فجأةً رئيسَاً لدولة لها ثقلها المدوّي بعد عقود طويلة من الانتظار العقيم ظل فيها "الإخوانُ" يُشكّلونَ معارضةً خارجَ حسابات معادلة الحُكم..اذ كانوا ينظرون إلى استلامَ السلطة في مصر بوصفها أمنيةً بعيدةَ المنالِ ان لم تكن حُلماً مستحيلَ الحدوث..ليس لأكثر المتفائلين من قادةِ ورموز التنظيم وأنصاره فحسَب بل حتى على المستوىَ الشعبي أيضاً..لكن الزمان دارَ فجأة دورتهُ الغريبة وفتحتْ السلطةُ لهم أحضانها الدافئة ورمتْ إليهم مفاتيحَ البلاد في ظروف مُلتبسة كتلك التي مرّتْ على مصر عقب رحيل مبارك وأوصلتهم إلى حُكمٍ لم يدم طويلاً..لم يكن ما حدثَ حلماً افتراضياً وليتهُ كان كذلك إنما حقيقة كانت أغرب من كل الأحلام..إذ جلسَ مرسي بالفعل على عرشِ مصر المُرصّع بلآلئ مجدٍ وصلهُ متأخراً في غفلة منَ الزمنِ..وكانَ يتوجبُ عليه هنا أن يخلعَ فوراً معطفَ رجل الحَزب السريّ المعارض ويرتدي معطَفَ الرئاسة.

لكن منْ يتأمل جيداً أداءَ مرسي أثناء تلك الفترة القصيرة التي قضاها في الحكم سيكتشفُ بوضوح أن شخصية مرسي "الرئيس" لم تختلف كثيراً عن شخصية مرسي "التنظيم" في الوقت الذي كان ينبغي أن تفضي تلك الانتقالة الكبرى في هذه المعادلة الجديدة لولادة مرسي جديد يمثلُ نتاجاً طبيعياً وحتمياً لمزاوجة تفاعلية كان ينبغي أن تنصهرَ فيهاً السيكولوجية التنظيمية وتذوبَ حدَّ التماهي مع سيكولوجية رئيس البلاد الجديد.

لم يكن مسموحاً أبداً لمرسي إلا أن يُغلّبَ صورة "الرئيس" على صورة "الحزبي" إن أرادَ الخروج بسلامٍ من مأزق السلطة الشائك..لم يكن مسموحاً لهُ الانتقاء أو الاستعارة أو التداخل أو القفز بين الصورتين لأنهُ سيفضي حتماً إلى التشويش وسوء التوظيف ويوقعُ صاحبهُ في فوضى الانتحال المتداخلة التي يُضفيها التغاير الجوهري الصارخ في هوية وايديولوجية ولغة وطموح وأدواتَ كلّ صورة عنَ الأخرَى مما يسبّبُ ارباكاً كبيراً لوضوح واستقلالية صورة "الرئيس" النهائية..لكنَ مرسي لم يُتح لهُ الوقت ليفعلَ ذلك كلهُ وبدا كأنهُ ظلَّ يراوحُ متردداً بين الصورتين.

ثمة بالتأكيد أسبابٌ وتفسيراتٌ كثيرة أخرى يمكن أن تقفَ وراء عدم اكتمال نضوج هذا الانصهار والتماهي من بينها حجم التحديات وقلة الخبرة وغليان الشارع والصراع المحموم للانفراد بالسلطة بين مدنية وليدة وعسكرية عتيدة ومتأصلة..لَكن ثمة سبباً ربماً لا يقلُّ أهميةً عمّا سبقَ ذكرهُ ولم تسلّط الأضواءُ عليه بشكلٍ كاف وهو يتعلقُ بطبَيعةِ التكوين السيكولوجي للشخصية المنضوية تحت عباءة الاحزاب السرّية بشكلٍ عام..إذ يكَاد يغلبُ على تلكَ الشخصية شيوع الصبغة الانعزالية المنغلقة على نفسها بالاضافة إلى تبنيها صفة المعارضة الدائمة الغائرة عميقاً في صلبِ تكوينها بسبب ادمانها العملَ طويلاً في الخفاء تحت ضغوط رهيبة تتوزعُ بين الخوف والحذرِ والشكِ والتخوين..يرَفدها بعدَ ذلك إرثٌ متراكمُ وهائلٌ تختلط فيه الأدبياتُ والمناهجُ الحزبيةَ والأداءُ السلوكي الفعلي والسيَرُ التوثيقية لرموز تلك الأحزَاب وأعضائها ممن كانوا ضحايا للسلطات المتعاقبة.

ربما كان ينقصُ مرسي "الرئيس" قليلاً من الحظ وكثيراً من دهاء السلطة ومكرها كي تأذن الأقدارُ برسم مسَارات أخرى مغايرة لما حدثَ لهُ ولتنظيمِه بالفعل.. ولاضيرَ هنا من عقدِ مقارنةٍ مهمةٍ بين فعلين يتعلقان بكرسي الرئاسة في بلدين متجاورين:

الأول هو ما فعلهُ "التُرابي" في السودان مع "البشير" حينما "خَطفهُ" من جنوب كردوفان إلى الخرطوم بسرية تامة كي ينصبهُ رئيساً للبلادَ في الانقلاب الذي أطاحَ بحكومة الصادق المهدي عام 1989.

أما الفعل الثاني فهو الذي قامَ به مرسي في ذروة المواجهة المحمومةَ بينهُ وبينَ السيَسي قبل أيامٍ قليلة فقط من الانقلاب حينما أتصل مساعدا مرسي باللواء الركن أحمد وصفي في السويس لإقناعه بمنصب وزير الدفاع بديلاً للسيسيَ الذي كان مرسي ينوي اقالته..فقامَ اللواء وصفي بأخبارِ السيسي بذلك مانحاً إياهُ أهم وأغلى دليلٍ كان ينقصهُ للانقضاضِ على مرسي وضربِ تنظيمه بيد منَ حديد فكانت القشةَ الضائعة التي كان يبحثُ عنها السيسي ليضعها فوق ظهر البعير ليقصمهُ ويزيحهُ من الميدان..وهذا ما عنيناهُ بدهاء السلطة ومكرها الذي كانَ يفتقدهُ مرسي كَرجلٍ دخلَ متأخراً لمعترك السياسة العَنيف قياساً بخبرةَ السيسي رجل المخابرات المُحنك.

وهنا دعونا نشاكسُ الأقدارَ قليلاً ونطلقُ العنانَ لخيالنا فنحاول رسمَ خطوط أخرى لمسارات افتراضية بديلة لما حصلَ بالفعل ونتابعَ نتائجهَا المُغايرة..أعني أن نعكسَ الأدوارَ ونتصورَ معاً أَن مرسي سبقَ غريمهُ السيسي وقامَ باعتقاله وزجّ به في السجن قبل ساعة واحدةَ فقط منَ وقوع الانقلاب عليه ثم شَرعَ فوراً بمحاكمته بتهمةَ التآمرِ والخيانة..لو أنَ هذا السَيناريوَ البديل هو الذي حدثَ بالفعل لكان مرسي الآن لا يزالُ رئيساً لمصر..أما السيسي فربما كانَ اليوم في عداد الأموات أو طريحَ سجنٍ كانَ سيقضي فيه بقية حياته بأفضلِ الاحتمالات!

أخيراً..بوسعنا القول أن مرسي كان ضحية ابتسامة خداعٍ ماكرة رَسَمَتها شفتا الأقدارَ فجأةً بوجهه لفترة وجيزة جداً لم يتح لهُ الوقتُ فيهاً أن يتأقلمَ مع تلك الانتقالة التاريخية الكبرى التي حوّلتهُ بينَ ليلة وضحَاها من مرسي "التنظيم" إلى مَرسي "الرئاسة".

صورة محمد مرسي على جدار شائك

من سيفوز برضا الشعوب وثقتها ؟

تتسابق الدول والحكومات منذ تفشي جائحة كورونا على إجراء الاختبارات من أجل التوصل إلى لقاح تستطيع من خلاله أن تتربع على كرسي الأفضلية والرضا بين دول العالم ، وتنال تقدير الناس الذين أصابهم لهيب وسموم هذه الجائحة منذ حلت بلواها على الأمم . ونسمع بين الحين والآخر عن توصل دولة أو شركة وأحيانا فريق طبي إلى نتائج يعتقد أنها الحل لمشكلة تفشي المرض الذي اقترب عدد الإصابات من جرائه في العالم إلى (ثمانية ملايين مصاب)(كما وصل عدد الوفيات إلى ما يقارب النصف مليون حالة وفاة) لغاية كتابة هذا المقال إذن لا ضير من تسابق الدول والجامعات ومراكز البحوث الطبية على بلوغ الهدف الاسمى والذي تنتظره مليارات من الناس الذين شل نشاطهم وحركتهم هذا الوباء النحس والخبيث ، وما نتمناه ويتمناه غيرنا من أهل الارض على امتداد قاراتها السبعة هو أن نسمع يوما ما عن علاج ناجع معترف به ومثبت من الجهات الدولية وبالتحديد من منظمة الصحة العالمية ، اعتراف يقر بنجاح هذا العلاج أو ذاك اللقاح المعطل لنشاط هذا الفايروس المميت، اللقاح الذي نتطلع إليه نحن المساكين الذين نختبئ من عدوى هذا المرض هو أن تتضافر جهود الدول والمؤسسات الصحية فيها لمواجهة هذا الخطر ، سواء بتوفير الأجواء المناسبة للعلماء او في تبادل الخبرات والمعلومات التي من شانها ان تحقق النجاحات في الاختبارات ، القائمة او التي ستقوم بفعل نشاط واهتمامات المختصين من الاطباء والباحثين في مختلف بلدان العالم وتقديم التسهيلات وكل ما تتطلبه عملية البحث عن بروتكولات دوائية تنهي هذا الخطر وتقطع الطريق عليه من النفاذ الى جسد البشر و السريان فيه متحديا العقل البشري وارداة الناس للخلاص والانتقال لممارسة حياتهم اليومية ونشاطهم الاقتصادي والاجتماعي كما كان قبل المحنة التي داهمت كل البيوت وعطلت الحياة بكل ما فيها من المعاني الجميلة

أذن أصبح من الواجب ان نطرح الافكار الاتية التي من شانها مواجهة المخاطر والعمل عليها بكل حرص ومسؤولية:

1- فتح المختبرات والمراكز البحثية التي تقوم بعملية البحث عن الدواء امام الباحثين من الدول وبآلية تمنح العلماء فرصة التواصل وتلاقح الافكار فيما بينهم و ان تكون هذه الفرصة والمهمة عابرة للحدود.

2- تبادل المعلومات التي يتوصل اليها العلماء في كل بلد وعدم احتكارها في البلدان عسى ان تكون سبيل وفرصة من اجل الوصول الى نتائج توحد وتوجه الجهود المشتركة.

3- حث البلدان التي تتميز بوضع اقتصادي جيد بدعم مؤسساتها البحثية و كذلك دعم منظمة الصحة العالمية بالمال والخبرات على ان تتم العملية باشراف متقن من قبل الامانة العامة لمنظمة الامم المتحدة والدول التي تتبنى التنويل.

4- تطويق بؤر الوباء في اي بقعة بالعالم وفرض قيود امية دولية وليست محلية متروكة فقط للحكومات التي ربما تتعاطف مع سكانها و تتهاون بالقيود .ذلك كون الوباء أصبح خطر على البشر جميعا.

5- مساعدة الدول الفقيرة ودعمها بالمال والمستلزمات الطبية لمواجهة الاخطار التي تواجهها جراء تفشي المرض.

، ومؤكد اننا من خلال هذه الرؤية وهذا الحماس سوف نتمكن من تطويق. هذا الخطر الذي أصبح قريبا منا يدخل علينا متى شاء والأغرب أنه من المتوقع. إن. يزورنا بثوب جديد وتحته تختفي مصائب الدنيا كما يؤكد ذلك عدد من الباحثين بهذا الشان ،لقد أصاب هذا المرض الغني، والفقير، القوي ،والضعيف، ولن يفرق بين أحد وآخر ، فهل اصبح من الواجب ان ننتبه لحالنا ونوحد جهودنا ؟وننسى خلافاتنا لننطلق بارادة ،وادارة ،وتنظيم ،موحد في مواجهة عدو غادر خبيث و خنيث يريد السوء بنا جميعا ، لقد توقفت الحياة في بلداننا المتقدم منها ومن هو على طريق النمو والتقدم وخدشت إرادتنا، وتعطل اقتصادنا وازدادت البطالة وأفلست بنوكنا ، ونخشى على أولادنا من مدارسهم واحتمالية إصابتهم بالعدوى مما جعلنا نتخذ قرار توقفهم عن الدراسة،إذن لابد من العمل ومزيد من التضافر والتكاتف والعمل معا ، ولعلني أردد هنا مقولة لجيفارا ربما تعد مثلا وحكمة يقتدى بها لمن يريد أن يوحد الجهود ويسعى لتحقيق السعادة لمجتمعه فيقول :(إن الحياة لا تمنح الفرص إلا للراغبين) فهل نبحث عندالفرص من أجل مواجهة الخطر؟، ومن سيفوز برضا الشعوب وثقتها بعد ان نوحد الجهد العلمي والمالي والتقني لتدحر الخطر الذي وقف أمام بيوتنا.

مظفر عبد العال

اسطنبول

غيض من فيض

احتد الجدال بين الشابين من مواليد تسعينات القرن الماضي وهما يتناقشان على قرار رئيس الوزراء مصطفى ألكاظمي حول إيقاف الرواتب المزدوجة مابين مؤيد ومعارض بحسب الحالة الاجتماعية والبيئة والأسرة التي نشأ فيها كل منهما ، وفضا للخلاف طلبوا رأيي في الموضوع ، فحدثتهم عن تجربتي الشخصية كشاهد على العصر وتناولت بعض الظروف المعاشية في تلك الفترة أي التسعينات يوم كانوا هما طفلان حديثي الولادة ليحتكموا فيما بعد بينهم ، كان الطريق للحصول على أسباب العيش يمر عبر بوابة الإذلال والمهانة، وهكذا كانت هذه عادة يومية طيلة عقد التسعينيات من القرن الماضي والسنوات الثلاثة الأولى من القرن الواحد والعشرين ، الفقر كان سمة جماعية، الأغنياء نادرون جداً في الحيّ الواحد، يكاد لايخلو بيت من البيوت من أرملة فقدت زوجها في الحرب ، كنّ يصنعن الخبز للآخرين، أو يعملن في شؤون منزلية كالخياطة، مقابل بعض المال القليل لتأمين قوت يومهن وأسرهن ، فيما عمل أولاد البعض منهن في بيع اسطوانات الغاز وهي إحدى المعاناة التي شهدتها تلك الفترة إلى جانب الكثير والكثير ، فكان يتجول في شوارع المنطقة من اجل بيع اسطوانات الغاز مقابل هامش من الربح ضئيل جداً ، لكن معظم العائلات التي تتأرجح على خط الفقر لا تشتري منه الغاز، وتدفع بأبنائها للذهاب إلى المحطة، والانتظار في طابور طويل للحصول على أسطوانة غاز تعبر فيها أسبوعاً آخر من الحياة الرديئة ، وكان جارنا الشاب الأكاديمي الفنان الذي لم تسنح له الظروف بالحصول على فرصة عمل تتناسب مع شهادته وموهبته الفنية كان قد حصل على مايعرف حينها وكالة (غاز ونفط) من خلال كوبونات توزع شهرياً للأسرة وحسب رقم المحلة والزقاق والدار المدون في البطاقة التموينية ومن حسن الحظ انه صديق أخي و جارنا في نفس الزقاق مما سهل علينا معرفة مواعيد وصول شاحنة الغاز والنفط والحصول عليهما ، كان بمجرد مجيء شاحنة الغاز ويلمح احدهم مرورها باقفاصها المميزة يصرخ "جاء الغاز " وهكذا ينتشر الخبر من واحد لآخر، فتتحول الشوارع إلى مهرجان للضجيج ، وماراثون مفتوح لمن يصل أولاً ويقف في بداية الطابور ، فيما كانت الطوابير أمام محطات الغاز في المدن العراقية كانت فصلاً مأساوياً آخر من فصول حكاية الحصار الطويل فبسبب التزاحم وتراكم الأجساد وأسطوانات الغاز الفارغة التي غالباً ما تتسبب باندلاع معارك تنتهي عادةً بالدم، لجأ النظام إلى وضع قفص حديدي بطول يتجاوز الـ 40متراً أحياناً، وبعرض يساوي مترين أو أقل؛ لحصر الطابور وتنظيم الحشود الباحثة عن الغاز ، كان مشهد الناس وهم يدخلون إلى القفص للمرور إلى المحطة يشبه كثيراً مشاهد حبس "العبيد" في الأقفاص، لكي تحصل على الغاز عليك أن تعاني، تماماً مثلما عليك أن تعاني للحصول على كل شيء يسند حياتك المتعبة في البلد المحاصر .

لن انسى ابن زميلتي في العمل عند تخرجه من المرحلة الابتدائية وعند التقاط صورة تخرج جماعية في المدرسة بمناسبة اجتياز التلاميذ مرحلة دراسية والانتقال إلى المرحلة المتوسطة لم يستطع الحصول على صورة تذكارية والاحتفاظ بها لعدم تمكن والده من دفع ثمن الصورة كان ثمنها ((500دينار عراقي وهذا المبلغ يساوي 10في المئة من راتب الموظف العادي ، وهو رقم كبير بالنسبة إلى العائلات العراقية التي سقطت في هوة الفقر عندما انهار العراق، وفُرض عليه الحصار ، ؛ كان كل شيء يتداعى في العراق، والإنسان كان يُسحق بمجنزرة الحصار ببطء طيلة 13سنة. لقد مات الكثير بسبب الجوع وسوء التغذية وتفشي الأمراض وانهيار النظام الصحي، والبُنى التحتية أصابها الشلل والإهمال، واختفت الطبقة المتوسطة من النسيج المجتمعي العراقي، وكان أصحاب الشهادات العليا والموظفون في الدولة يزاحمون العمالة في الشوارع، فلا غرابة حين تمشي في شوارع العراق وترى معلماً أو مهندساً يجلس على الرصيف لبيع السجائر أو الأحذية أو الملابس المستعملة (مع كل الاحترام والتقدير لأصحاب ذوي المهن البسيطة والشريفة) ، أو أيّ شيء آخر يوفر له بعض المال، واضطرّ الناس خلالها لأكل الخبز المليء بالحجارة والرمال ، واضطروا لبيع أعزّ ما يملكون من مقتنيات ثمينة وأثاث منزليّ ، فيما بيعت مكتبات المثقفين والتي لا تقدر بثمن على الأرصفة مقابل الحصول على لقمة العيش او الدواء .

تحوّل العراق إلى مقبرة جماعية كبيرة خلال الحصار، وشهد في تلك الفترة أكبر هجرة جماعية للعقول، آلاف الباحثين والعلماء وأصحاب الشهادات العليا غادروا العراق إلى المنفى،فروا من جحيم الفقر ، ومثلما قال وزير الخارجية الأميركي الأسبق جيمس بيكر، فقد عاد العراق إلى حقبة ما قبل الصناعة.

واختتمت حديثي وهما يتابعاني بشغف وصمت بان هذا كله غيض من فيض وقصص زمن الحصار لا تنتهي.

رجاء حميد رشيد

بغداد